خامساً: **كارل ماركس Karl Marx (1818-1883)**

كارل ماركس فيلسوف ألماني، سياسي، وصحفي ،ومنظّر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات، إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجليز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي. وقد شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجليز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية (الشيوعية المعاصرة). ولد بمدينة (ترير) في ولاية (رينانيا) الألمانية عام 1818م والتحق بجامعة بون عام 1833 لدراسة القانون. وأظهر ماركس اهتماماً بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد لماركس أن يصبح محامياً. وقام ماركس بتقديم رسالة الدكتوراه في الفلسفة عام 1840 وحاز على شهادة الدكتوراه. من مؤلفاته: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"(1859) و "رأس المال" (1867) (30).

وقد أحدثت الفلسفة الماركسية ثورة فى العلم, ولكى ندرس هذه الفلسفة يتعين علينا أن نتذكر أن ماركس ولينين قد اعتمدا على بعض الفلسفات السابقة وعلى الانحياز الإيجابى للعلوم, خاصة دارون ونظريته عن أصل الأنواع. فالفلسفة الماركسية هى نتاج لظروف اقتصادية اجتماعية محددة كما أنها أيضاً نتاجاً لمتطلبات فلسفية وطبيعية معينة (31).

وقد ظهر الاتجاه الماركسي فى عام 1840, وكان نتاجاً مباشراً لظروف اجتماعية معينة. لأن الرأسمالية قد تطورت وزاد التوجه نحو علمنة الحياة (في ضوء خلفية الصراعات بين العلم والكنيسة في أوروبا ومحاكمات العلماء واتهامهم بالهرطقة), فوجد ماركس وانجليز أن السبيل الوحيد لفض النزاع بين العلم والكنيسة هو رفض الدين من الأساس, فكانت فلسفته المادية وكان زعمه بأن الدين ما هو إلا مخدر لتخدير الشعوب.

موقف ماركس الأيديولوجي

أعلن كارل ماركس (1818-1883) تحيزه الأيديولوجي بوضوح منذ البداية. كما أنه بدلاً من أن يحاول إخفاء الصلة بين موقفه الأيديولوجي وبين اتجاهه الفلسفي النظري, عمل على أن يؤكد هذه الصلة ويبرزها بشكل صريح. ولم تنفصل مجهودات ماركس السياسية عن مجهوداته العلمية النظرية, بل إنه كان هناك دائماً تلاحم بين الاثنين لدرجة أن تاريخه الشخصى - الذى يمكن اعتباره حتى عام 1845 - أى حين كان فى السابعة والعشرين من عمره سلسلة من الحلقات فى تاريخ فرد أصبح منذ هذا الوقت لا ينفصل عن التاريخ العام للاشتراكية فى أوربا. فقد أصبح ماركس ثورياً محترفاً, يكتب ويحاضر ويتآمر من أجل تحقيق الثورة على النظام الرأسمالى التى كان يعتقد أنها آتية لا ريب فى ذلك.

وقد عبر ماركس عن اتجاهه الأيديولوجى منذ أن كان صبياً فى مرحلة المراهقة, فقد كتب مقالاً قصيراً عندما كان فى السنة النهائية بالمدرسة الثانوية عنوانه "تأملات شاب عن اختيار مهنته" عبر فيه عن مبدأ ظل يسترشد به طوال حياته السياسية والفكرية حيث قال: «إن المبدأ الذى يجب أن نسترشد به فى اختبارنا لمهنتنا يجب أن يكون رفاهية الإنسانية وكمال أنفسنا ولا يجب أن يتطرق إلى أذهاننا أن هاتين المصلحتين تتعارضان مع بعضهما البعض أو أن إحداهما يمكن أن تقضى على الأخرى. فالواقع أن طبيعة الإنسان تمكنه من تحقيق كمال ذاته من خلال العمل على تحقيق كمال ورفاهية مجتمعه. والتاريخ يسمى أولئك الأشخاص الذين يعملون من أجل الإنسانية أعظم الرجال الذين اكتسبوا صفات النبل من خلال جهودهم فى سبيل الإنسانية» (32).

وفى عام 1843 كتب ماركس سلسلة من المقالات السياسية فى مجلة Rheinische Zeitung الألمانية عن الظروف الاجتماعية وتناول فى هذه المقالات وصف بؤس الفلاحين الذين يزرعون الكروم والمعاملة القاسية التى كان يلقاها الفقراء لسرقة بعض الأخشاب من الغابات التى كانوا يعتقدون أنها ملكية عامة لهم فيها بعض الحقوق, كما هاجم ماركس الحكومة الروسية التي وصفها بالرجعية فى مقالاته, مما أدى بإمبراطور روسيا فى ذلك الوقت إلى الاتصال بالسفير الروسى بخصوص ماركس, وكان من جراء ذلك إغلاق المجلة التى يكتب فيها ماركس, فهاجر إلى باريس حيث طردته الحكومة الفرنسية من فرنسا عام 1854 بناء على شكوى الحكومة الروسية لمهاجمته لها فى سلسلة من مقالاته, فهاجر إلى بروكسل حيث اتصل بالمنظمات الاشتراكية وبخاصة الرابطة التربوية للعمال الألمان Educational Association of German Workers والعصبة الشيوعية The Communist League . وفى عام 1847 كتب ماركس بناء على تكليف من هذه المنظمة وثيقة تشرح أهدافها ومعتقداتها, وهى التى عرفت باسم البيان الشيوعى "المانيفستو"Communist Manifesto وكانت أول جملة فى هذا البيان "أن تاريخ كل المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقى" تمثل أهم الجوانب التى ميزت فكر كارل ماركس الذي كان يقوم على فكرة الصراع والطبيعة الجدلية.

وفى عام 1848 اتجه ماركس إلى ألمانيا بعد قيام الثورة فيها, حيث رأس تحرير مجلة راديكالية جديدة تهاجم ما أسمته الرجعية والرأٍسمالية, وتدافع عن حقوق الطبقة العاملة. وبعد فشل الثورة, عاد إلى باريس ثم استقر به المقام فى لندن منذ عام 1849 حتى نهاية حياته, حيث أصبح ريئساً للجمعية العمومية الدولية التى تكونت عام 1863 وهى اتحاد دولى للعمال كان يهدف إلى وضع نهاية النظام الاقتصادى الرأسمالى واستبداله بنظام آخر يقوم على الملكية العامة. وخلال هذا النشاط السياسي, كان ماركس يعمل فى مؤلفاته التى تعكس هذا النشاط وتدعمه فى نفس الوقت.

وهكذا نرى أنه فى مقابل انحياز كونت ودوركايم وفيبر وباريتو للطبقة العليا (البرجوازية) وتسخيرهم نظرياتهم لتبرير النظام الرأسمالي والدفاع عن البرجوازية, انحاز كارل ماركس للطبقة العاملة وسخر نفسه ونظريته للدفاع عن هذه الطبقة ونقد ومهاجمة النظام الرأسمالى من أجل الإطاحة به وإحلال النظام الاشتراكى محله. ومثلما كانت نقطة انطلاق كونت لتحقيق هدفه هى رفض فلسفة التنوير النقدية والسلبية على اعتبار أنها حققت هدفها بقيام الثورة البرجوازية والنظام الرأسمالي الصناعي وتبنى بدلاً منها الفلسفة الوضعية الإيجابية التى كانت نقطة انطلاق ماركس من فلسفة التنوير النقدية السلبية ولكنه قام بتطويرها على أسس مادية أو لامثالية (33).

وتتكون الماركسية من شقين متكاملين. المادية الجدلية Dialectical Materialism والمادية التاريخية Historical Materialism . والموضوع الأساسى للمادية الجدلية هو القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حول علاقة الوعى بالوجود. وموقف الفلسفة الماركسية من هذه القضية محدد بوضوح. فهى تسلم بأن المادة والوجود أساس الوعي أو الفكر. فالوجود هو الأولى والوعي هو الثانوى. كما أنها تسلم بالأساس المادى للعالم وبإمكانية فهمه ومعرفته – كما أنها تدرس هذا العالم المادى بوصفه فى حالة حركة وتطور مستمرين على أساس جدلى أو ديالكتيكى وترفض أى معنى روحى أو دينى. وترى أنها تكشف عن أكثر القوانين التى تحكم تطور العالم المادى عمومية؛ أى تلك القوانين التى تحكم كافة مجالات الواقع. فكل الموضوعات الحية وكذلك ظاهرات الحياة الاجتماعية والوعى – من هذا المنظور المادى البحت - تتطور على أساس قوانين الجدل الأساسية ووحدة صراع الأضداد, وقانون التحول الكمى إلى تغير كيفى وقانون النفى. كما تدرس المادية الجدلية أيضاً القوانين التى تحكم المعرفة Cognition بوصفها عملية والتى تعكس قوانين العالم الموضوعى.

أما المادية التاريخية فتعنى بالقوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع وتكشف الطبيعة المادية الجدلية لتطور الحياة الاجتماعية. وهى عبارة عن تطبيق القوانين العامة للمادية الجدلية على نوع معين من ظاهرات الكون وهو الحياة الاجتماعية (34).

وتشكِّل الفلسفة المادية البِنْيةَ الفكرية التحتية، أو النموذج المعرفي الكامن للعديد من الفلسفات الحديثة: الماركسية والبرجماتية والداروينية وغيرها. كما أنها تشكِّل الإطارَ المرجعيَّ الكامنَ لرؤيتنا للتاريخ والتقدُّم وللعلاقات الدولية، بل وأحياناً لأنفسنا. وقد ارتبطت الفلسفة المادية في عقول الكثيرين بالعقلانية والتقدُّم والتسامح... إلخ، مع أن الواقع أبعدُ ما يكون عن ذلك! ويذهب المسيري في هذه الدراسة إلى أنه قد حان الوقت لفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه الفلسفة، نظراً لأهميتها وهيمنتها على بعض أعضاء النُّخَب الثقافية والفكرية عندنا. ويمكن تصنيف هذه الدراسة باعتبارها محاولةً في هذا الاتجاه. فهي تحاول تعريف الفلسفة المادية وسر جاذبيتها ومواطن قصورها، فهي تُخفق في تفسير ظاهرة الإنسان، بل وتشكل هجوماً على الطبيعة البشرية. وتتناول الدراسة كذلك مفهوم العقل، فتبيِّن أن العقل في حد ذاته مفهوم عائم غائم، وأن المهم هو النموذج الكامن وراء العقل. وانطلاقاً من هذا التصوُّر تحاول الدراسة حصر أهم سمات العقل المادي، كما تحاول توضيح الفرق بين العقل الأداتي والعقل النقدي. وتتناول بقية الدراسة بعض التجليات التاريخية للفلسفة المادية، مثل العلمانية الشاملة والإمبريالية والداروينية والإبادة الغربية لملايين البشر ابتداءً من عصر النهضة في الغرب في الأمريكتين حتى العصر الحديث في ألمانيا النازية والجزائر وفيتنام والبوسنة والشيشان(35).

وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤسسين الأربعة لعلم الاجتماع لم يعبروا عن آرائهم بمصطلحات متطابقة كل التطابق, إلا أن هناك اتفاقاً أساسياً فيما بينهم على الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع, وأول نقط الاتفاق فيما بينهم أنهم جميعاً يسمحون – بل ويحثون أحياناً– علماء الاجتماع على دراسة طائفة كبيرة من النظم الاجتماعية, ابتداء من الأسرة حتى الدولة, وهم يتفقون على أنه ينبغى تحليل هذه النظم من منظور خاص هو منظور علم الاجتماع.

وفى سياق الحديث عن العلماء الأوائل المؤسسين لعلم الاجتماع, لا يمكن تجاهل دور العلماء الأمريكيين إذا أخذنا في الاعتبار, أنه مع عشرينات القرن العشرين, وصولا إلى حقبة الحرب العالمية الثانية, كان للباحثين الأمريكيين السبق في العلوم الاجتماعية. فضلا عن هجرة العديد من علماء الاجتماع الأوروبيين إلى أمريكا في فترة الحرب واستقرار العديدين منهم فيها بعد ذلك.

وفى هذا الصدد, نلاحظ أن علماء الاجتماع الأوائل فى الولايات المتحدة كان أغلبهم قادم من خلفيات علمية مختلفة. فمثلا "سمنر" Sumner كان عالم اقتصاد, وتلقى "سمول" Small تدريبه فى البداية كواعظ ديني, ثم أصبح بعد ذلك عالم سياسى ومؤرخ, وتدرب "جيدنجس" Giddings فى البداية ليصبح صحفي, واستمر كذلك لعدة سنوات عمل فيها كصحفي نشط فى الرابطة الأمريكية للاقتصاديين, وكان "روس" Ross فيلسوفا واقتصاديا. وهؤلاء وغيرهم ممن صاروا مهتمين بعلم الاجتماع فيما بعد, كان يتضح فى كتاباتهم تأثرهم بخلفيتهم العلمية السابقة. ونعرض فيما يلى لبعض تلك الأسماء الهامة.

**6- ليستر ف. وورد Lister F. Ward**

يعد ليستر وورد أقدم علماء الاجتماع الأمريكيين, حيث ظهر مؤلفه الأول "علم الاجتماع الدينامى" Dynamic Sociology فى عام 1883. وقد تميزت أفكار وورد - على خلاف الكثير من العلماء الأوائل فى أمريكا – بالنضوج الكبير عندما كتب كتابه الأول. ويمكن القول أن أعماله التالية كانت مجرد توسعا واستفاضة فى بعض النقاط التى وضعها فى كتابه الأول. وقد كان جل اهتمام وورد منصبا على تصحيح ما كان يراه أخطاء عند كونت وسبنسر. حيث كرس نفسه ووجه طاقته لإكمال هرمية hierarchy كونت للعلوم وتوضيح أن سبنسر لم يحالفه الصواب فى التصحيحات التى قام بها. ومن الإسهامات الهامة الأخرى لوورد تأكيده على العوامل النفسية فى تطور الثقافة أو الحضارة. وقد حمل مخططه المنطقي logical scheme الذي عرض فيه لتأملاته طابع مهنته العلمية (حيث كان يعمل فى الأساس عالم نباتات صرف جانبا كبيرا من حياته فى خدمة الحكومة فى واشنطن), وكان ذلك واضحا فى إسهاماته الرئيسة. وكان تأكيده على أهمية العوامل النفسية فى النشوء والتطور الاجتماعي يقف فى وجه مادية سبنسر التى كانت تغفل هذا العامل.

كما كان له إسهامات هامة أخرى فى بعض النطاقات البسيطة, مثل رأيه بأن عملية النشوء والتطور ليست مستمرة أو مباشرة, بل إنها بالأحرى عملية رمزية. ومهما يمكن أن يقال عن مخططة المنطقى لعلم الاجتماع, فإن مكانته كمفكر نشيط فى علم الاجتماع الأمريكى تحتل مكانة كبيرة.

**7- ويليام جراهام سمنر William Graham Sumner**

درس سمنر فى ألمانيا فى عقد الستينات من القرن التاسع عشر. وقد عمل فى جامعة "ييل" Yale منذ 1866 إلى 1869. ثم عمل لمدة ثلاث سنوات كمدير مساعد بكنيسة فى مدينة نيويورك, ثم أصبح خورى فى كنيسة كبيرة. ومنذ عام 1872 حتى وفاته فى 1910 شغل منصب أستاذ علوم سياسية واجتماعية فى جامعة ييل. ولم ينشر سمنر إلا كتابين فى علم الاجتماع؛ الأول كان بعنوان "ما الذى تدين به الطبقات الاجتماعية لبعضها البعض" What Social Classes Owe Each Other , ونشر فى عام 1883, وهو لا أهمية له من منظور علم الاجتماع. وفى عام 1906 نشر كتابه الثانى "الطرق الشعبية" Folk Ways وهو كتاب ذو قيمة كبيرة. وكان هناك كتاب ثالث فى علم الاجتماع بدأ بكتابته فى عام 1899, لكنه مات قبل أن ينتهي منه. وبمطالعة كتابه الثانى "الطرق الشعبية", يخرج القارئ بانطباع أنه أمام رجل شتت طاقه فى أكثر من اتجاه, لذلك فكم فلا تخرج منه بمفهوم واضح لعلم الاجتماع. وربما تكون أهم إسهاماته فى تطوير علم الاجتماع الأمريكي هي تأكيده المستمر على الأسلوب العلمي.

**8- ألبيون سمول Albion W. Small**

شأنه شأن أغلب علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل, جاء ألبيون سمول من خلفية علمية مختلفة. فبعد تخرجه من الكلية, دخل معهد نيوتن اللاهوتي Newton Theological Institute , حيث تعلم علوم اللاهوت وقرر الذهاب لعدة سنوات لألمانيا وانجلترا لدراسة التاريخ والاقتصاد السياسي. وفى برلين وليزبيرج, تحول لمجال ثقافي جديد كان يشغل المؤرخين والاقتصاديين السياسيين الألمان فى تلك الفترة وهو علم الاجتماع. وبعد زواجه فى ألمانيا, عاد لبلده حيث شغل موقع أستاذ تاريخ واقتصاد سياسى فى جامعة كولبى التى كان قد تخرج منها. وقد أيقظت دراساته المشتركة مع "سمولر"Schmoller اهتمامه بصراع الطبقات والعوامل التى تدفع حراك الطبقات المختلفة فى محاولة منها لتأمين إشباع رغباتها. وفى هذه الأثناء, كان قد أصبح على علم بكتُاب علم الاجتماع فى فرنسا وبريطانيا, وحاول أن يجد مكانا فى أمريكا يمكن فيه تعليم علم الاجتماع. وفى النهاية من خلال نفوذ صديق له من خريجى جامعة جونز هوبكنز ومن خلال التأثير لأحد أول كتب البرفسور "ريتشارد ت. إلى" Richard T. Ely, فقد ترك جامعة كولبى فى إجازة لمدة عام وذهب لجامعة جونز هوبكنز، حيث أثار مخيلة بعض معلمى وخريجى الجامعة لفكرته. وعند عودته لجامعة كولبى, تم انتخابه كرئيس للمعهد, وقام بتقديم مقرر فى علم الاجتماع تحت عنوان "مقدمة لعلم الاجتماع".

**وقد أسهم سمول عبر حياته فى تنمية الفكر السوسيولوجي فى أمريكا. ومن أهم هذه الاسهامات:**

1. نظريته عن القوى الاجتماعية المفترض وجودها فى المصالح. والمصالح التى يراها تتضمن الصحة والثروة والعلاقات الاجتماعية والمعرفة والجمال والصواب. وتبرز نظرية المصالح تلك أثر خبرته التى تحصل عليها فى ألمانيا بشكل واضح.
2. قد تكون أهم إسهامات سمول متمثلة فى قيامه بشرح "راتزفهومز" Ratzenhofer لعلماء الاجتماع الأمريكين.
3. فى أثناء الجزء التالي من حياته, كان سمول مهتما بما أسماه الطريقة المنهجية methodology . ففى حين أنه اتفق مع " سمنر وجيدنجس" Sumner and Giddings فى تأكيدهما على ضرورة بناء علم الاجتماع وجعله حقيقة واقعة, فإن ما قصده بالطريقة المنهجية هو وضع التصنيفات التى يرى أنها تعطى مغزى للحقائق الموجودة. وقد كان أهم أعماله فى الطرائق المنهجية دراسته المقارنة لأعمال سنبسر و "سيكيفل" Schaeffle وراتزفهومز, حيث أشار فيها إلى أن التوجه السياسي لعلم الاجتماع - من سبنسر حتى راتزتهوفر - حدث له انتقال من المرحلة الفنية الى المرحلة العملية, أو كما وصفه "تحول تدريجى فى المساعى البحثية من التمثيل التناظرى للبنى الاجتماعية الى التحليل الحقيقى للعمليات الاجتماعية".
4. على النقيض من سمنر, خرج سمول من دراسته للصراع بين الجماعات بمفهوم مفاده أن الصراع يتم حله من خلال التعاون المتبادل والضبط الاجتماعي. وقد زودت هذه النظرية سمول بطريقة منهجية وعللت تأكيده على الأخلاق فى علم الاجتماع. فاهتمامه بعلم الاجتماع مقتصر على قدرة هذا العلم فى الاسهام فى التحسين الاجتماعى.
5. يمكن القول أن سمول كان له اسهاما فى تاريخ علم الاجتماع أكثر من أى عالم اجتماع أمريكى آخر. تشهد بذلك أعامله مثل "خمسون عاما لعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة" الذى نشر فى عام 1916 و "مستقبل علم الاجتماع" ونشر فى عام 1920, وكتابه الآخر "أصول علم الاجتماع", والتى تتحدث جميعها ليس فقط عن عملية تطور علم الاجتماع فى أمريكا, بل تلقى الضوء كذلك على الخلفية الأوربية التى تطور فى ظلها خاصة فى ألمانيا(36).